جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية

الندوة التّكوينية لطلبة الدكتوراه: الخطاب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة

يوم 10 جانفي 2024.

عنوان المداخلة: ***تشكيل شخصيّة المتصوّف في "هذا الأندلسيّ" و" موت صغير"***

الدكتورة: /سليمة لوكام/ الرتبة: أستاذة التعليم العالي/ *جامعة محمد الشريف مساعدية*

الملخّص:

استدعت الرّواية العربيّة التراث العربيّ الإسلاميّ من حيث اتّخاذها شخصيّات صوفيّة كان لها حضورها القويّ موضوعاً مركزيّاً فيها. و في هذه المداخلة، نحاول تقديم قراءة في نصّين روائيّين " هذا الأندلسيّ" لبنسالم حميش، و "موت صغير" لمحمد حسن علوان، وقد صدرا في الألفية الثالثة، و تناولا على التّوالي، شخصيّتين صوفيّتين بارزتين هما "ابن سبعين" و"ابن عربي" ، وقد بحثنا فيهما عن طرائق تشكيل الشّخصيّات وصيغ التعاطي معها، وهو أمر يتطلّب وقوفاً على أثر المرجعيّ بخصوصيّته، وإدراكاً لإمكانات حضور التخييليّ، وتقصّياً لأدوات التّعبير كالمعرفة الصّوفية، والوثيقة التّاريخيّة، والإحاطة بالسّياقات الثقافيّة و الفكريّة، و تطويع العرفاني وصهره بالمحكيّ، وغيرها ممّا أسهم في رسم ملامح شخصيّات بدت، على تباينها، مؤتلفة مع المرجعيّ في جانب، و مختلفة عنه في آنٍ معاً.

الكلمات المفتاحية: الرّواية، التّصوف، الشخصيّة، المعرفة، التّشكيل.

Abstract:

The Arabic Novel invoked the Arab Islamic heritage in terms of taking Sufi characters who had a strong presence as a central theme. In this intervention, we try to provide a reading in two narrative texts "This Andalousian" by Bensalem Hemmiche, and "The small Death" by mohamad Hassan Alwane, which were issued in the third millennium, and dealt respectively, two prominent Sufi personalities, "Ibn Sabaeen" and "Ibn Arabi", and we have searched in them for the methods of forming characters and formulas for dealing with them, which requires standing on the impact of the reference with its specificity, and awareness of the possibilities of the presence of the imaginary, and the investigation of tools of expression such Sufi knowledge, and the historical document, and the familiarity with cultural and intellectual contexts, and the adaptation of Al- Irfani with the narrative, and others, which contributed to drawing the features of personalities who appeared, despite their contrast, to combine whith the reference on the one hand, and different from him at the same time.

Key words: The novel, Sufi, forming character, knowledge.

تمهيد:

إنّ التمحّض لمسألة الشخصيّة المتصوّفة في الرّواية العربيّة المعاصرة، وتحديداً رواية الألفية الثالثة، يشرع بلا ريب باباً وسيعا للبحث بمداخل عديدة، ذلك أنّ ما تمّ استدعاؤه من شخصيّات معروفة تاريخيّاً في الرّواية العربيّة المعاصرة بصرف النّظر عن أيّ تصنيف معرفيّ، أثار العديد من الاستفهامات من مثل: لمَ هذه الشخصيّات تحديداً؟ أيكون الاستدعاء من قبيل توّظيف التراث المُتواضَع عليه بمصطلحات تنوس بين تداخل النصوص، واستعمال الوثيقة، وإحضار الهامشيّ في دائرة المركز، أم أنّ مردّ الأمر و مداره معقود على اقتضاءات الإبداع، و دواعي اللحظة التاريخيّة الفارقة، و الرّغبة في الانتقال من الاكتفاء بشعريّة الخرق إلى معماريّة الخلق؟

و غاية ما نتغيّا إثارته، لا الإجابة عنه، ممّا نتطارحه معكم في هذه المؤانسة البحثيّة هو أن نحاول تقصّي أنحاء النّظر في جانب له بتوظيف التراث العربيّ آصرة وثيقة من حيث نشره بقعة ضوء على شخصيّات تاريخيّة لم تنل حظّها من التّناول الإبداعيّ الرّوائيّ في فترة سابقة، و كذا من حيث ما يقيمه من صلات بمنحى دينيّ فكريّ و توجّه فلسفيّ حضاريّ وسم الثقافة العربيّة بميسم خاصّ، و مثّل فيها بوجه من الوجوه ملمحاً يتنزّل متنزّل الرّوحيّ السّاميّ العرفانيّ.

لعلّه من نافل القول أن نلفت الانتباه إلى ما تعجّ به المكتبة العربيّة، و حتّى الغربيّة اليوم من دراسات متخصّصة، و بحوث أكاديميّة عكفت على التصوّف و الشّخصيّات المتصّوفة، و أعملت معولها في ذلك ناظرة متفحّصة، و أثمرت منجزاً علميّا حقيقاً بالقراءة لما ينطوي عليه التّراث الصوفيّ من صنوف المعرفة الإنسانيّة، و ما تحيل عليه شخصيّاته من ضروب الإبداع الفكريّ و الأدبيّ و الثّقافيّ.

أمّا في مجالات الإبداع الأدبي العربيّ المعاصر، فقد تفاوت حضور هذا التّراث الصّوفيّ فيه زمنيّاً، و تباين بين مظهريه الأجلى: الشعر و النثر (السّرد)، وقد كان للمظهر الأوّل السّبق إلى التوظيف بفعل عوامل شتّى لا يبدي المقام حاجة إلى تفصيل القول فيها، أمّا السّرد، و الرّواية تحديداً، فعدا النّتف القليلة التي نقع عليها في المتون الرّوائيّة الحديثة، فليس بمقدورنا القول إنّ ثمّة اشتغالاً بالغاً على التّصوّف، و على الشخصيّات الصوفيّة قبل الفترة المعاصرة، بل إنّنا نذهب إلى القول إنّ ما صدر في العقدين الأوّلين من الألفيّة الثالثة من روايات تعاطت مع التراث الصّوفيّ لافت للنّظر، فقد حلّقت في عوالمه الغريبة المثيرة، و استثمرت أدبيّاته و مقولاته و رموزه و مفاهيمه و مصطلحاته، و أهمّ من ذلك كلّه، أفردت متوناً برمّتها لشخصيّات متصوّفة، و حاكت لها من المأثور سِيَراً ، و نسجت لها من إهاب المتخيّل حبكات كان لا بدّ أن تتساوق مع رؤية معاصرة للعالم و الأشياء، و تتناغم ما

ترتضيه اشتراطات التّجاوز في الكتابة الرّوائيّة، و استراتيجيات التجريب من مخاتلة الرّواية المرجعَ و خرقها الشّعريّة السائدة و إعادة تشييد معمارَها.

وقد انتقينا نصّين روائيّين عربيّين صدرا في الألفيّة الثالثة، أحدهما بعنوان "هذا الأندلسيّ" للرّوائي المفكّر المغربي "بن سالم حمّيش" (سنة 2007)و ثانيهما بعنوان "موت صغير" للرّوائي السّعودي "محمّد حسن علوان" سنة (2016)، و النّصان احتضنا شخصيّتين صوفيّتين هما على التّوالي: " عبد الحقّ بن دارة الأندلسيّ" المعروف ب "ابن سبعين" ، و " محيي الدّين بن عربي" و هو من أقطاب التصوّف البارزين.

ولأنّ رهان الإبداع في الرّوايتين قد ارتكز بالأساس على حياة الشخصيّة، فإنّنا نطمح إلى التّسلل إلى صيغ تشكيلها، والرّؤية التي حكمت هذا التّشكيل، ذلك أنّ ما حفّ هذه الشخصيّات الصّوفيّة تحديداً من أحداث و حوادث، وما شفّت عنه أعمالها التي كتبتها، والأعمال التي كُتبتْ عنها، و ما تقاطع معها من تخييل يضع الروائيّ على أرض لزجة إمّا أن تزلّ به قدم فيها فيهوي و يجانب الهدف، و إمّا أن يتسمّر في موضعه، فلا يدرك غاية مطلقاً.

الشخصيّة الصّوفيّة و المعرفة:

سننطلق في تتبّعنا لمسار تشكيل الشخصيّات من قول نصر حامد أبو زيد: "**أعتقد أنّ كلّ من مسّه طائف من فكر ابن عربيّ يظلّ يحلم دائماً بتجديد صلته به، سعياً للتّدقيق المعرفيّ من جهة، و لاستيعاب التّجربة الرّوحيّة الثّريّة التي تتجلّى في كتاباته.**"[1]

---

[1]– نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلّم ابن عربيّ ، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006، ص 12.

و لئن كان "أبو زيد" قد خصّ دارس "ابن عربيّ" بهذا الحكم، فإنّنا نعتقد أنّ لدارسي سائر المتصوّفة نصيباً ممّا قلّ منه أو كثر، أمّا الرّوائيّون، فهم أولى بالتّدقيق و الاستيعاب لا لأنّهم مطالبون بإسداء معرفة، أو تفصيل قول في تجربة روحيّة، بل لأنّ التخييل في انصهاره بالمرجع يستدعي تمحيصاً و تقصّياً و إحاطة، و في هذا عنت شديد، فمن يتصدّى للشخصيّة الصّوفيّة يحتاج بلا شكّ لوعي العارف الملمّ المدرك لخصوصيّة التّراث الصوفيّ، و إن كنّا نسلّم بأنّ " **بناء الشخصية و مثولها أمام المتلقي ككيان متكامل هو بناء ثقافي. فالمتلقي لا يستطيع إدراك هذه الشخصية و معرفة أسرارها إلا من خلال المخزون الثقافي المشترك بين محفل الإبداع و محفل التلقّي.**"[2] ، فإنّنا في بناء الشخصيّة الصّوفيّة نجد أنفسنا أمام بناء ثقافيّ متعدّد الأوجه، معقّد العلاقات، تعلوه غلالة من التّرميز كثيفة، وينوء تحت ثقل حمولة المعارف النّادة عن المحاضرة بحكم نسفها للعديد من البنيات الفكريّة والدّينية القائمة بقوة الدّين و التّاريخ والسّياسة، وهو المعنى الذي أوجزه "ابن سبعين" في نعته للفقيه المنتمي بطبيعته و معرفته إلى البنية الدّينيّة الشّرعيّة بقوله: " **يزعم أنّه يفهم كلام المرسل و خبر الرسول، ويعلل دينه، و يتمّمه برأيه و اجتهاده، ويفصّل قوله...**" [3]

وصفوة القول، إنّ الشخصيّة الصّوفيّة تتأبّى على المبدع، قد تنصاع له، بعد محاورة ومداورة، لكنّها لا تُعطي قيادها إلّا لمن حاز المعرفة التي تؤهّله لامتلاك حالاتها، الإمساك بتلابيبها.

2- سعيد بنكراد، سيمولوجية الشخصيات السّرديّة، دار مجدلاوي عمان، الأردن، ط1، 2003، ص 59-60 .

-

[3] ابن سبعين، بدّ العارف، تح: جورج كتورة، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1978، ص111.

تشترك رواية "هذا الأندلسي" ورواية "موت صغير" في كونهما تعرضان سيرتي هذين الصّوفيين، كما أنّهما لا تشتركان في اصطناعهما ضمير المتكلّم ساردا مضطلعاً بوظيفة الحكي فحسب، بل في إعلان الشخصيّتين كلتيهما عن اسميهما، ونسبهما وهويّتهما، وتفاصيل عن حياتهما الشّخصيّة كما وردت في الوثيقة التّاريخيّة المتعلّقة بهما، فالشخصيّة "ابن سبعين" تجيب المرأة التي سألته عن هويّته بقوله:

" **مسلم موحّد كما ترين، ابن المشرق و المغرب وطالب للعلم ولو من حكماء الصّين،**

- **و اسمك أيّها الفارس؟**
- **عبد الحقّ بن دارة.**

استغربت المرأة نسبي، وفطنت إلى أنّه لقب صوفيّ أو جهاديّ فلم تستوضحني..."[4]

أمّا شخصيّة "ابن عربيّ" فلم تَرَ غضاضةً، ومنذ الصفحات الأولى، في أن تُمدّ القارئ بمعرفة عن وضعها الشّخصيّ، فقد أجملت في بعض الكلمات مسيرة حياتها حين قالت: "**منذ أوجدني الله في مرسيّة حتّى توفّاني في دمشق وأنا في سفر لا ينقطع. رأيتُ بلاداً ولقيتُ أناساً وصحبتُ أولياء، وعشتُ تحت حكم الموحّدين والأيّوبيّين والعبّاسيّين والسلاجقة في طريق قدّره الله لي قبل خلقي.**" [5]

ثمّ لا يلبث " ابن عربيّ" هذا أن يُفصح عن اسمه، وهو المريد أمام شيخه "الغوث أبي مدين" مبيّنا له سبب مجيئه، ومن أيّ البلاد هو، فنلفيه يقول: " **أنا محيي الدّين بن عربيّ، جئتك من الأندلس لتغيثني بغوثك، وتمدّني من فضلك، وتحلّ عليّ بركتك يا شيخ.**"[6]

---

[4]– بنسالم حمّيش، هذا الأندلسيّ، دار الآداب، بيروت، ط2، 2011. ص37

[5] – محمّد حسن علوان، موت صغير، دار السّاقي، بيروت، ط8، 2017، ص25.

[6]– محمد حسن علوان، موت صغير، ص 194.

وممّا يلفت انتباه القارئ بعد إجالته النّظر في الأرجاء الرّحبة للروايتين، هو ذلك الكمّ الهائل من الشخصيّات الحاضرة فيها، وهي في عمومها، وبصرف النّظر عن وقائعيّتها أو متخيّلها، تزجي معرفة متنوّعة المشارب، وترحّل إلينا زمناً زاخراً بالأحداث، وتنقل عبره ثقافة و فكراً و تاريخاً و سياسة، وحوارات ونقاشات ضجّت بها باحات المساجد، وازدهت بها مجالس الصوفيّين و الأولياء يتساوى في ذلك الأقطاب و المريدون على حدّ السواء.

ولا نغالي إذا قلنا إنّ النّصين الرّوائيّين يمتحان من معين واحد أو متقارب، وتحديداً فيما هو موصول بتتبع المحطّات التي توقّفت عندها الشّخصيّتان، والمعالم الكبرى التي بدت علامات فارقة في وجود كلّ منهما: المولد والنّشأة والتحصيل العلميّ والدّينيّ والتّرحال والبحث عن المعرفة والحقيقة والموقف من فقهاء الشريعة، ومن أهل السّياسة في تلك الفترة الحرجة من التاريخ الإسلاميّ، وخاصة في الأندلس قبل سقوطها في يد الفرنجة بفعل تناحر المسلمين، وتخاذلهم وانشغالهم بصغائر الأمور.

شخصيّات "ابن سبعين":

قدّمت شخصيّة "ابن سبعين" في رواية "هذا الأندلسي" مجموعة من النّساء "المعشوقات" (قطر النّدى، ميمونة، سارة اليهودية، بلقيس، خوانيتا أربوس، فيحاء، أمامة...) و نفر من الرّجال من الخدم والمريدين و الأصدقاء و السّاسة و الفقهاء والفلاسفة ممّن حضروا المشهد الرّوائيّ (سلمان، الخِضر، عبد العلي، الصّادق، حمدان الباديسي، السلطان رشيد، و والي سبتة ابن خلاص، والأمبراطور فريديريك، وأمير مكة ابن نمى، الظاهر بيبرس،...) أو ممّن تمّ استدعاؤهم (في رؤيا مثلا) لحاجات أكيدة في إقامة حجّة أو إيجاد شبه، أو رفع شبهة أو دحض مزعم (التوحيدي و ابن رشد وابن حزم...)

غير أنّ تسارع وتيرة السّرد، و كثافة المادّة المرويّة، أفرغ حضور هذه الشخصيّات من محتوى ذا بال، حتّى يخال القارئ أنّها تمرّ أمام ناظره شريطا مرئيّاً سريعا كما يحدث

في الأفلام و الشرائط الوثائقية، ففي كلّ مدينة يحلّ بها "ابن سبعين" ينسج له فيها محكيٌّ خاصٌّ، وشخصيّاتٌ و حبكاتٌ، فمن مرسيّة إلى سبتة، ومن بجاية إلى تونس، و من القاهرة إلى مكّة حيث حطّ الرّحال أخيراً، كان يلتقي بشخصيّات كثيرة العدد، يأتلف مع بعضها، ويختلف مع الأعمّ الأغلب من بعضها الآخر، فيقف معها برهة من الزّمن ويمضي بعد أن يشدّنا إلى ما يتّصل أو يعلق بها من بنات ذلك الزّمن أو نوائبه.

لكنّ أوكد ما أوكل إلى السّارد الشخصيّة في الرّوايتين من مهمّات، هو تولّي تقديم شخصيّات أخرى تركت بصمات غائرة في حياة الشخصيّتين الصّوفيتين محلّ الدّراسة.

أمّا "ابن سبعين" الذي نهض بوظيفة السّارد الشخصيّة المعبّر بضمير الأنا، فعمد إلى استحضار علمين من أقطاب الصّوفيّة:

أمّا الأوّل فمتخيّل، وهو عبد الكامل المكناسيّ، وتمثّل باهت الحضور، هشّ التّشكيل، لم تبلغ به إمكانات التخييل حدود الإقحام الفجّ الفائض عن الحاجة في أطواء هذا السِّفر الضّخم.

وأمّا الثّاني فأبو الحسن الششتريّ الشّاعر الأندلسيّ الصّوفي الزّجال المعروف، هذا الذي تثبّت الوثيقة وجوده في حياة "ابن سبعين"، وتتضارب الرّوايات في طبيعة ما يصل بينهما من وشائج، فمن المرجّح أنّ ما استمدّته الرّواية من نسغ الوثيقة كان رائقاً، وأنّ ما صيّرتها به شخصيّة داخل هذا العالم المحكيّ الشديد التشابك و التعقيد كان شائقاً حتّى لكأنّنا نستشعر صدق ما بين الرّجلين، والبيتان المدبّجان على الغلاف الخلفي للرّواية المتضمّنان مدحاً نظمه الششتري في "ابن سبعين" يحيلان على ما ورد في أكثر من موضع في الرّواية في هذا الشّأن، و قد انتقينا منه مشهدا للقاء بين الرّجلين بعد طول غياب: " يوم أُسجّله بماء الذّهب: العاشر من ذي القعدة ستّمائة و ستّين في عشيّته لحق بي النّاظر ياسر في غرفتي، وألحّ عليّ لاهثا أن أصحبه لتمتيع عيني بمن يُحبّني وأُحبّه، سرتُ خلفه متهيّباً

وأنا أُفكّر أنّ الأمر قد يتعلّق بالستّ أُمامة، لكن ما إن فتح باب غرفة محاذية للحديقة حتّى رأيت الحبيب الششتريّ مستلقياً على فراشه استوى جالساً بجهد جهيد، فتعانقنا عناقاً حارّاً وذرفنا الدموع السّواجم. بكيت مثله كثيراً من شدّة فرحي لرؤيته بعد فراق وغيبة، وأيضاً لإشفاقي على صحّته الآيلة إلى السّوء..." [7] ،

إنّ إمعان النّظر في هذا النصّ المقبوس من الرّواية، يوقفنا على أنّ تشكيل الشخصيّة لا يتقوّى بالوثيقة فحسب، خاصّة عندما يتعلّق الأمر بالمتخيّل التّاريخيّ، وبالمتخيّل الصّوفي بشكل أدقّ، بل بحياكة من سُدى تلك التّفاصيل، وصياغة هذه الجزئيّات مثل إدراج تاريخ اللّقاء، والشخصيّة، وتسريب اسم أُمامة الزّوجة الحبيبة، وفكرة "تمتيع العين بالنّظر إلى الحبيب"، والمساواة بين حبّ الحبيبة الزّوجة، والحبيب الوليّ الصّديق، "الغرفة المحاذية"، "بجهدٍ جهيد"...،

شخصيّات "ابن عربيّ":

لا أعرف تحديداً ما الذي دعاني للجمع بين الرّوايتين في هذه الدّراسة، لكنّ الثّابت عندي أنّ قراءتي "موت صغير" أحالتني وبإلحاح على "هذا الأندلسيّ"، كنت أقرأ "ابن عربيّ" روائيّاً، و أستدعي قراءتي "ابن سبعين"، حتّى إنّ الأمر كان يختلط عليّ أحياناً حينما ألتقي بشخصيّات، أو أقف على حديث سفر أو ترحال مع ذكر أسماء مدن (مرسية، بجاية، مكّة، القاهرة...) ، أو أتابع نقاشات العلماء و المثقفين مع أهل الحكم و السّياسة، و احتدام والحوارات بين الفقهاء و المتصوفة، أوتبيّن حالات الصوفيّة و أحوالهم في الحبّ والجذب والفناء، و أهمّ من ذلك التّلميح حيناً، والتصريح أحياناً كثيرة بمآثر هاتين الشّخصيّتين من كتب و رسائل و أشعار، و في هذا الملمح يكون ما تركه ابن عربيّ أغزر و أثرى.

---

[7] – بن سالم حميش، هذا الأندلسيّ، ص 442.

ولا يمكن لذي تبصّر أن يتغافل عن القرب الحاصل بين زمني "ابن سبعين" و "ابن عربي"، ولا أن يتجاهل التشابه النسبيّ بين تجربتيهما في جانب من الجوانب، لكن ما وقر في ذهني تلقّياً أنّ ما أثّث المقدّرات المعرفيّة للرّوائيّين في تناولهما لهاتين الشخصيّتين الصّوفيّتين (التخصّص العلميّ و الانتقال إلى الغرب للدراسة، الوضع السوسيو ثقافية ...)، و ما نضّد حسّهما الإبداعيّ (التوجّه الفكريّ السياسيّ النقديّ التّاريخي لدى "حميشّ ، و الانشغال بالذّاتيّ و الإنسانيّ و المعيش و الخارق و المألوف عند علوان)

حَكَمَ رؤيتهما تيميّاً وجماليّاً للشّخصيّتين الصّوفيّتين في الرّوايتين، وكانت له اليد الطّولى في رسم مسارات الشخصيّات، وتطويع أمزجتها، وتوقّع مصائرها.

وفي المثال الذي نسوقه في هذا الموضع ما يقيم الدّليل على ما نميل إلى ترجيحه، فالشّخصيّات التي تحرّكت أو حُرّكت في نصّ "ابن عربي" قريبة المأخذ في عمومها، إمّا بفعل وجودها التّاريخيّ الحقيقيّ، وإمّا بافتراض وجودها المادّيّ الطّبيعي. فالوالدان مثلاً حاضران في الروايتين، لكن التفاوت في الحضور بادٍ للعيان، يشترك الوالدان في الروايتين في كون الأب من أعيان الدولة، يمارس سلطة أبويّة، يتخذ زوجة ثانية، و في كون الأمّ مستكينة لسلطة الوالد، راضية متسامحة، غير أنّ الخصوصيّة في سيرة "ابن عربيّ" هي أنّ ما ميّز شخصيّتي الأب و الأم وكذا الإخوة، هو بقاؤها حاضرة فاعلة موجّهة مؤثّرة على امتداد كمٍّ مطبعيّ هامّ في الرّواية لينتهي الأمر بإعلان وفاة الوالدين، واستمرار وصيّة أمّ روحيّة "فاطمة" رافقت الأمّ البيولوجيّة مفادها الحرص على طهارة القلب، والبحث عن الأوتاد الأربعة التي استغرقت رحلة السّعي لإيجادها بقيّة متن الرّواية، في حين بدا حضور شخصيّتي الأب و الأمّ عابراً في "سيرة ابن سبعين"، كما كان خروجهما من أحداث الرّواية غير مبرّر إبداعيّاً ، ثمّ إنّ فكرة البحث عن المخطوطة في الرّواية بدأت قويّة لكنّها سرعان ما تلاشت، فلم تُسهم، و كان هذا هو المرجوّ، في إغناء الرّواية حدثيّاً، مع العلم أنّ الاتّهام في ضياعها وُجّه بشكل متعسّف و مصطنع ، إذ كانت المتّهمات نساء ينتمين إلى أديان

مختلفة: اليهوديّة و النصرانيّة و المشركة و المسلمة، و لذا تبدّى خطاباً مكشوفاً مشحونا بحمولة ثقافيّة مؤدلجة النّبرة عجزت الشّخصيّات عن احتوائها، فانبرى لإغفالها دون علّة مقنعة.

في سيرة "ابن عربي" أيضاً شخصيّات انتظر القارئ حضورها فانتصبت فيها مكرّسة لقاء التّصوّف بالفلسفة في انسيابية انصهر التّخييلي فيها بالوقائعيّ دون تصنّع حدث، أو تضخيم صورة: " وصل ابن رشد إلى مراكش بعد أسبوعين من العفو. هرم وكأنه قضى في أليسانة ثلاثين سنة وليس ثلاث سنين، شابت لحيته وتجعّد جبينه وارتخت جفونه وانحنى ظهره. رأيته على هذه الهيئة عن بعد وهو يدخل مجلس الخليفة، تجنّبت أن أُسلّم عليه لشعور طاغٍ في نفسي يمنعني عن ذلك. كنت أخشى نظرة منه تعيدني إلى حالة النّدم التي بدأت تغادرني ببطء، ولا أُريد أن أنتكس مرّة أخرى."[8]

إنّ التّدبّر في هذا المقطع السّرديّ يُظهر شخصيّة "ابن رشد" موصوفة من قبل السّارد الشّخصيّة "ابن عربيّ" حيث يتمازج التّاريخيّ والسّياسي النّفسيّ والعرفانيّ في ذوب جماليّ دون تسجيليّة مخلّة ولا استعراض معرفيّ مملّ، و لا نريد من وراء هذه القراءة أن نفاضل بين النّصين، بقدر ما نروم تقصّي أثر المرجع التوثيقي في تشكيل شخصيّة المتصوّف "ابن عربيّ" في قصّة لقائها بشخصيّة الفيلسوف "ابن رشد".

من الشخصيّات التي تفرّدت بحضور قويّ في رحلة حياة "ابن عربيّ": الحبيبتان "مريم" و"نظام" من النسّاء، والمريدان "بدر" و"سودكين" فضلا عن الأوتاد الأربعة " الغوث أبو مدين"و "يوسف الكومي" و "الحصّار" و "شمس التبريزي".

ولو أخذنا على سبيل المثال شخصيّة "نظام" من النساء، و "بدر" من الرّجال لألفينا التقاطاً لتفاصيل ونتف وشذرات وإشارات وإلماحات وتصريحات انتقاها الرّوائي بعناية،

---

[8]– محمد حسن علوان، موت صغير، ص 230–231.

واجتهد في رصفها وتصنيفها، وأمعن في التّدقيق في إسناد الأدوار، وتصوير المشاهد الدّراميّة، وصنع الملامح الفزيولوجيّة.

ومن تلك المقاطع حول هاتين الشّخصيّتين، يقول عن نظامّ:

" **– نظام !**

كانت تخفي فمها بخمارها، وكانت عيناها تضحكان. خجلت من حالتي و تعبي، من جفاف فمي و رثاثة ثيابي، بدا ارتباكي واضحاً، ولساني معقوداً لا يملك كلاماً، فتكلّمت هي:

- **ماذا تفعل هنا يا رجل؟**
- **أطوف!** [9] "

يقول عن بدر: " **ظننته لا يعي ما ألقيه عليه من إشارات و رموز و تفسير و كشوف فإذا هو يجمعها في كتاب و ينظمها و يشرحها، و ظننته يريد أن يصحبني لأنه لم يعتد الحياة دون سيّد يأمره فإذا هو حرّ في باطنه وإن عاش عبداً في ظاهره، و ظننته يبقى في صحبتي أيّاماً فبقي خمساً و عشرين سنة. وكنت أظنّ أنّ البدور لا تكون سوداً فإذا ببدر الحبشيّ أكمل البدور، وأتمّها بالنور و أجلبها للطّمأنينة و السرور.**"[10]

قد يعترض بعضنا على هذا الرّأي بحجّة أنّ هذا من صميم الإبداع، وما عسى الرّوائيّ أن يفعل إن لم يضطلع بهذا، والحقيقة أنّ من قرأ هذا النّص يُدرك عسر مناوشة التّراث الصّوفي، وصعوبة الاقتراب من شخصيّاته، خاصّة أنّ "ابن عربيّ" "يمثّل أحسن تمثيل نضج التّجربة الصّوفيّة ووضوح معالمها المعرفيّة والعاطفيّة، وكذا الكتابة الصّوفيّة بكلّ زخمها." [11]

---

[9] – المصدر السابق، ص 317.

[10]– المصدر السابق، ص 209.

[11]– آمنة بلعلى، تحليل الخطاب الصّوفي في ضوء المناهج النّقدية المعاصرة، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص 64.

كما إنّ النّدرة المسجّلة في مثل هذه الرّوايات في المدوّنة العربيّة يؤكّد التهيّب الذي يصيب كتّاب الرّواية من خوض مثل هذه التّجربة، على خلاف الشّعر المعاصر الذي يتكثّف فيه توظيف التراث الصّوفي بكلّ وجوهه وجميع أشكاله.

خاتمة:

في مختتم هذه الدراسة، ليس ثمّة بدّ من أن أُشير إلى ما ينبغي أن يُذكر فيما كنت إليه بسبيل.

بعد أن قطعت شوطاً من القراءة والبحث، أدركت أنّ هذا العنوان يصحّ أن يبذل فيه جهد كبير، وينفق فيه وقت طويل، وهو أحقّ بأن يكون عنوان بحث أكاديميّ دسم لا تتسع له صفحات معدودة، في سويعات قليلة.

وصفوة ما ننتهي إليه، أنّنا لم نكد نلمّ في هذه القراءة العجلى إلّا بالنزر القليل من صيغ تشكيل الشخصيّة المتصوّفة في هاتين الرّوايتين الضّخمتين، اللتين احتشدت فيهما الأحداث و أسماء الشخصيّات من الحكام والخلفاء والقادة والسّادة والفقهاء والعلماء والفلاسفة وأقطاب التّصوّف ومريديهم، والنّساء على اختلاف مللهن ونحلهنّ وأوضاعهنّ، والمدوّنات، والمحاورات والدّسائس وحالات الحبّ، وتاريخ الأندلس، والإشارة إلى أجناس من الفرنجة على تعدّد بلدانهم، وتباين مذاهبهم، ووصف المدن والممالك والأمكنة، وما سوى ذلك ممّا يشقّ على الرّواية العربيّة المعاصرة تناوله.

ولأجل ذلك، يتحصّل لدينا أنّ اتّخاذ الشخصيّة الصّوفيّة متناً مركزيّاً في الرّواية مغامرة إبداعيّة غير مأمونة العواقب، فهي تتجاوز بثرائها المعرفي، وخصوصيّتها العرفانيّة، ما يمكن أن تطرحه روايات المتخيّل التّاريخيّ، وما تستدعيه من إحاطة وإلمام بصنوف الفنون والعلوم، و ما تتطلّبه من تمثّل واستيعاب لأدبيّات الصّوفيّة وجهازها الاصطلاحي الترميزيّ لا يوازي في شيء القدرة على صياغته روائيّاً، وتشكيل عوالمه التّخييلية.